دراسة فی روایة ما *تبقی لکم* لغسان کنفانی

سعیدة میرحق جولنگرودی*
فاطمة علینژاد چمازکتی**

المخلص

غسان کنفانی کاتب، وناقد، وروائی، وشاعر، وشهید، قد خرج برواياته العديدة عن دائرة الواقع الاجتماعی المحلی (هموم ناتجة عن نکبة فلسطین سنة ۱۹۴۸) إلی القضايا الإنسانية العامة التی تتعلق بالوجود وبالإنسان. *ما تبقی لکم*، هی روایة تعتبر من بواکير التجارب الحداثية فی منبر الروایة العربية، لا يستطيع القارئ العادی أن يفهمها، وحتی القارئ المختص يحتاج إلی الروية حتی يستکشف مضامينها. قد استطاع الکاتب أن يصور قضايا مجتمعه من خلال رسم أحداثه. بعد قراءة هذه الروایة الاجتماعية تتضح أن غسان کنفانی، کان يشاهد مشکلات المجتمع الفلسطينی، وقد تأثر بمشاهداته الدقيقة وکأنه ناطق باسم الطبقة الشعبية، والطبقة المتوسطة التی کانت تعانی من مظاهر الظلم، والفساد، والفقر، والحرمان. والکاتب قد تحدث عن الواقع علی لسان الشخصيات الفلسطينية. کانت هذه الروایة انعکاساً للمضمون الروحی لشعب معين فی مرحلة معينة. يحاول غسان فی هذه الروایة الوصول إلی التعبير المناسب عن أفکاره التحررية وغايتها فکرة العودة.

الکلمات‌الدليلية: غسان کنفانی، ماتبقی لکم ، فلسطين، القضايا الإنسانية.

*. عضوالهيئة التعليمية فی المرکز الإقليمی المعلوماتی للعلوم والتکنولوجيا. شيراز.
**. عضوالهيئة التعليمية فی المرکز الإقليمی المعلوماتی للعلوم والتکنولوجيا. شيراز.

تاريخ الوصول: ۱۳۸۹/۱/۲۳هـ . ش تاريخ القبول: ۱۳۸۹/۷/۱۷هـ . ش

المقدمة

ولد غسان كنفانی كاتب، وناقد، وروائی، وشاعر، وشهيد فی مدينة عكا، فی فلسطين سنة ١٩٣٦م، واستشهد سنة ١٩٧٢م؛ فهو رغم أدبه الخاص، ورواياته الكثيرة، لم يعرف فی بلادنا كما يستحقه. إن ظهور كنفانی كأديب كان مع روايته رجال فی الشمس ١٩٦٣م، فی مناخ ثقافی وفكری عام، شكلت القضية الفلسطينية خلفية بعيدة لهموم النخب الثقافية العربية. من نتائج نكبة عام ١٩٤٨م، كان هروب الشعب الفلسطينی من وطنه؛ ليعيش لاجئاً فی أغلب أقطار الوطن العربی. نری فی هذه الظروف عديداً من الضحايا فی الميدانين الاجتماعی والسياسی، وقد انعكست هذه الظروف والحالات فی الرواية الفلسطينية بوضوح كامل فی صورة رموز بشرية وقعت ضحية ظلم الآخرين، وتعسفهم.

ما تبقی لكم، هی الرواية الثانية لغسان كنفانی، هذه الرواية صدرت ١٩٦٦م، وهذا التاريخ له دلالته الكبيرة فی حياة الشتات الفلسطينی، فيه تحقق ظهور التنظيمات الفلسطينية، بتشكيلاتها العسكرية الضاربة والسياسة المنظمة. تحكی الرواية عن أسرة فلسطينية تسكن مدينة غزة. هذه الأسرة أخرجت من مدينتها يافا، بعد الصدام الذی حصل بين العرب، واليهود؛ وتحت ضغط الظروف، والإرهاب الذی تم فيه إخراجهم تتشتت الأسرة. حامد هو الشخصية الرئيسة فی الرواية. هو رمز لكل شباب فلسطينی كابد مأساة ١٩٤٨م، وقذف به فی سرعة لاتسمح باستيعاب ما حدث.الشخصية الثانية فی الرواية هی مريم، أخت حامد، هی كل ما أفرزته الهزيمة من أوضاع الأسره الفلسطينية، ابتعدت من بيتها، ومدرستها، وطموحاتها، وأرضها بلامال ولاسند؛ لتضعها أمام أوضاع الحياة العاتية.الشخصية الثالثة، هو زكريا، زكريا هو الذی يمثل صورة الفلسطينی الجاحد بأرضه. هو يدل الضابط الصهيونی على الفدائی سالم، ويغتصب مريم فی غياب أخيها، حامد، عن البيت. وفی نهاية الرواية قتل زكريا على يد مريم، والذی يختتم به غسان الرواية، يوكد أن المرأة الفلسطينية ليست صورة لفلسطين فحسب؛ بل هی رمز لأرضها عندما تثور على مغتصبيها. هی الرواية التی اعتمدت الشكل الأقرب إلى المعاصرة، وقد

قام بناؤها الروائی علی حدث، غیر أن ذلک الحدث لم یتطور تقلیدیاً بحیث نری إلیه، وهو ینمو لحظة بعد لحظة، وساعة بعد ساعة أمام أعیننا. الشخصیات تتحدث فی زمن واحد والأمکنة أو الأزمنة، تتقاطع، وتتوازی، وتتواقف. إن غسان یخلق شخصیاته نتیجة ملاحظاته الدقیقة لنفسیات وأنماط سلوک الشخصیات الحیة التی یراها ویتعامل معها فی حیاته العادیة. غسان یستطیع أن یخلق شخصیات ذات ملامح فنیة، خاصة تجعل الشخصیة خالدة فی ساحة الأدب العظیم؛ لأن شخصیات روایاته تجاوزت صفحات الکتب النقدیة، وصار الناس یتحدثون عنها، کأنما هی کائنات بشریة عاشت بینهم بالفعل.

غسان کنفانی، حیاته الشخصیة والأدبیة

«غسان کنفانی واحد من آلاف الأطفال الذین شردوا، وعانوا ذل اللجوء، والعوز إثر نکبة عام ۱۹۴۸م. وهو واحد من آلاف الفتیان الذین حملوا هم مسؤولیة عوائلهم، وهم بعد فی عمر الطفولة الغضة، کما أنه یمثل آلاف الشبان الذین حملوا القضیة الفلسطینیة حرزاً ثمیناً فی قلوبهم لم یبخلوا فیسبیلها حتی بدمائهم.» (ضمرة، ۲۰۰۵م)

ونحن عندما نروی سیرة غسان إنما نروی سیرة ومعاناة جیل بأکمله، إلا أن غسان یتمیز عن غیره بکونه مبدعاً نذر نفسه وفنه فی سبیل قضیته. إن قراءة غسان کنفانی قراءتان: قراءة لنصوصه، وقراءة لحیاته. فی الأولی نجول فی عوالم المخیلة، والرؤی، والذات ومواجعها، والناس وحرائقهم الأبدیة. وفی الثانیة نمسک بید التاریخ من طفولة غسان...حتی شهادته. نبدأ بالجولة الثانیة:

«ولد غسان کنفانی فی مدینة عکا فی فلسطین سنة۱۹۳۶م، وتلقی دراسته فی مدارس الفریر فی مدینة یافا.» (کنفانی، ۱۹۸۷م: ألف) «حدثت مأساة فلسطین سنة ۱۹۴۸م، التی أرغمته علی النزوح من وطنه إلی لبنان قبل أن یتم دراسته الابتدائیة ثم لحق بأفراد أسرته فی دمشق وعاش فی شظف من العیش وقسوة من الحیاة.» (السوافیری، لاتا: ۳۸۰)

«فیها عمل غسان مع شقیقه غازی فی وظیفة *العرضحالجی* یکتبان الشکاوی للفقراء

أمام المحكمة؛ لنيل حقوقهم. راح غسان وشقيقه يتابعان الدراسة فی مدرسة ليلية فی الوقت الذی سافرت فيه فايزه (أخته) للكويت للعمل معلمة هناک ضمن قافلة تضم أول دفعة للمعلمات الفلسطينيات.» (العباسی، ۲۰۰۷م)

وهذه الشدة لم تضعف عزيمته ولم تصرفه عن مواصلة دراسته. ذكر والد غسان رحمة الله فی مذكراته: «بتاريخ ۱۹۵۰/۲/۱۲ أرسلت تحريراً إلى وزير خارجية إيطاليا بشأن ميول غسان.وأنا شخصياً لا أشک بأن المستقبل باسم وزاهر أمام غسان، خصوصاً فی الرسم، والخط، والأدب العربی سواء فی نطقه أو كتابته أو ارتجاله..

فی ۱۹۵۰/۲/۲۱ انتقل غسان إلى مدرسة الثانوية الأهلية مديرها المربی سليم اليازجی استعداداً لتقديم فحوص الشهادة الإعدادية (البروفيه)..» (كنفانی،۲۰۰۱م: ۱۰۹)

استمر والده: «بتاريخ ۱۹۵۳/۹/۲۹ باشر غسان بعد حصوله على الشهادة الإعدادية العمل فی مدارس الوكالة كمعلم لمادة الرسم فی معهد فلسطين. عمل أحيانا كمعلم أيضا فی مدرسة دوحة الوطن الخاصة، وعمل لفترة قصيرة كرسام فی مكتب مجلة الإنشاء لصاحبها نجيب الحفار..

فی كانون الأول ۱۹۵۴ نال غسان بنجاح الشهادة الثانوية الفرع الأدبی وسجل انتسابه إلى الجامعة السورية كلية الآداب.» (المصدر نفسه: ۱۱۰ بتلخيص)

«فی عام ۱۹۵۶م، سافر غسان كنفانی إلى الكويت ليلحق بأخته وشقيقته بها حيث عمل معلماً للتربية الفنية والرياضية، وتحسنت الأحوال المعيشية للأسرة فی هذه الفترة، وحصل الان على موافقة السلطات للممارسة مهنة المحاماة وكان معظم زبائنه من الفلسطينيين.» (حسن، لاتا)

فی هذه الفترة المبكرة من حياته بدأ كتابة القصة القصيرة. ويعلمنا كنفانی أن ميوله الأولية، واهتمامه المبكر كانت ذات طابع أدبی يقول: «إن حياتی السياسية نتجت عن كونی روائياً وليس العكس، لقد حاولت كتابة قصة شعبی الفلسطينی قبل أن تتبلور أمامی الروية السياسية، ولقد رأيت أن هنالک شيئاً ينقضی إذا لم أنخرط فی الحياة السياسية، وإننی أتضاءل كثيراً لو لم أكن روائياً فی نفس الوقت.» (ضمرة، ۲۰۰۵م)

«لقد کانت مجلة الرأی الأسبوعیة الناطقة بلسان حرکة القومیین العرب أول مجال خاضعة کنفانی وقد شجع محررها آنذاک _ هانی الهندی _ ذلک الشاب الوطنی علی الکتابة مما أطلق موهبته الخصبة، فنشر فی أقل من سنة ونصف ثمانی عشرة قصة.» (المصدر نفسه) «فی بدایة سنة ۱۹۶۰م، طلب منه الطبیب الفلسطینی جورج حبش الحضور إلی بیروت للمساهمة فی تحریر مجلة الحریة وقد نصحه أصدقاؤه أن لایفعل کونه بحاجة إلی المردود المادی الذی تؤمنه له الوظیفة، فهو مریض بداء السکر، ومرضه یتطلب نفقات علاج باهضة، ومع ذلک لبی نداء الواجب، وودع مهنة التعلیم والتحق بأخته؛ لعمل التعلیم فی الکویت للمساهمة فی إعالة الأسرة وبدأ یعمل فی الصحافة.» (غسان،۱۳۷۰ش: ۹-۸) ومن علی صفحات مجلة الحریة وقف مدافعاً عن القصة القصیرة، والروایة، والمسرحیة من جهة وعن معتقداته من جهة ثانیة.«وسافر مرة أخری إلی بیروت فی ۱۹۶۰/۱۰/۲۸ بهویة عمانیة باسم (هشام فایز) یرتدی الکوفیة، والعقال لیستقر فیها نهائیا.» (کنفانی، ۲۰۰۱م: ۱۱۲)

کانت بیروت المجال الأرحب لعمل غسان، وفرصته للقاء بالتیارات الأدبیة، والفکریة، والسیاسیة. «بدأ عمله فی مجلة الحریة ثم أخذ بالإضافة إلی ذلک، یکتب مقالاً أسبوعیاً لجریدة المحرر البیروتیة والتی کانت ما تزال تصدر أسبوعیة صباح کل اثنین.» (البیک، ۲۰۰۷م)

کتب والده فی مذکراته: «کنت أتمنی أن یکون غسان وأخوته المتشتتون فی أنحاء العالم إلی جانبی نعیش معا فی بیت واحد ساهموا جمیعا فی إرساء أساسه، لکننی رغم ذلک أقرأ لغسان کل یوم، وأعرف المقالات التی یکتبها بأسماء مستعارة. أخاف علیه، وأفخر به، أحس أنه سیصیر ذا شأن عظیم، أحس به امتدادا.فقد خلقت فیه المعاناة بشتی صورها، وأشکالها، والتی عاشها یوما بیوم الصورة الحقیقیة للفلسطینی.» (کنفانی، ۲۰۰۱م: ۱۱۲)

قالت آنی (زوجة غسان): «فی بیروت، عرفونی إلی غسان کنفانی، وکان آنذاک واحداً من محرری المجلة الأسبوعیة العربیة الحریة، وکانت المجلة ناطقة باسم حرکة

القوميين العرب، وكان غسان محرراً للشؤون الفلسطينية فيها. حين سألت غسان أن يأذن لی بزيارة مخيمات اللاجئين تملكه الصمت. وبعد هنيهة صرخ غاضباً: أو تحسبين إن شعبنا الفلسطينی حيوانات فی جنينة حيوانات؟» (هوارى، ۲۰۰۷م)

ثم شرع غسان بالتفسير فتحدث عن شعبه وعن وطنه. تحدث كيف أن الأمم المتحدة نقضت ميثاقها فی ۲۹ تشرين الثانی عام۱۹۴۷م. ليس فی ميثاق الأمم المتحدة مادة تسمح للهيئة الدولية بتقسيم أی بلد خلافاً لإرادة شعبه. أن تقسيم فلسطين لهو حدث فريد فی تاريخ الأمم المتحدة، بل إنه المثال الأول والأوحد على خرق الميثاق. تحدث غسان كيف أن دولة آسيوية واحدة (هی الفلبين، ودولتين إفريقيتين اثنتين، هما ليبيريا وجنوبی إفريقيا) صوتت لصالح قرار التقسيم، وأن الدولتين الأوليين قد مورس عليها ضغط شديد من قبل الولايات المتحدة؛ لحملها على مثل ذلک التصويت و... تابع غسان عن فلسطينة الحبيبة وعن إضطراره إلى مغادرتها عام ۱۹۴۸م، بصحبة أهله، وأشقائه، وشقيقاته الخمس.

بعد هذا اللقاء لمتمض على ذلک عشرة أيام، كان غسان يطلب يدها للزواج، وقام بتعريفها على عائلته كما قامت هی بالكتابة إلى أهلها.

تتكلم زوجته آنی عن حياتهما العائلية فتقول: «كانت لدينا مشاكلنا كأی فلسطينيين آخرين: مشاكل اقتصادية وغيرها مثلاً فی كانون الثانی من عام ۱۹۶۲م، اضطر غسان أن يلازم البيت مدة شهر كامل لأنه لا يملک أوراقا ثبوتية. خلال هذه الفترة كتب رواية *رجال فی الشمس* وقد أملاها علیّ، لقد ترجم لی كل قصصه ورواياته و...» (ضمرة، ۲۰۰۵م)

وتضيف: «لقد كان دائماً مشغولاً بالكتابة وكأنه على موعد من الموت. لقد تأثرت تأثراً كبيراً بغسان ولو أنه من جانبه لم يكن ليملی علیّ أو على أصدقائه آراءه، ولكنی كنت أحس بمدى تغلغل قضية فلسطين فی دمه.» (المصدر نفسه)

أدب غسان وإنتاجه الأدبی كانا متفاعلين دائماً مع حياته، وحياة الناس وفی كل ما كتب كان يصور واقعاً عاشه أو تأثر به.

عائد إلی حیفا عمل وصف فیه رحلة مواطنی حیفا فی انتقالهم إلی عکا وقد وعی ذلک. وهو ما یزال طفلاً یجلس ویراقب ویستمع، ثم ترکزت هذه الأحداث فی مخیله فیما بعد من تواتر الروایة. *أرض البرتقال الحزین قصة* تحکی رحلة عائلته من عکا وسکناهم فی العیشة الصعبة.

موت سریر رقم ۱۲، استوحاها من مکوثه بالمستشفی بسبب المرض.

رجال فی الشمس من حیاته وحیاة الفلسطینیین بالکویت، وإثر عودته إلی دمشق فی سیارة قدیمة عبر الصحراء. کانت المعاناة، ووصفها هی تلک الصورة الظاهریة للأحداث أما فی هدفها فقد کانت ترمز، وتصور ضیاع الفلسطینیین فی تلک الحقبة، وتحول قضیتهم إلی قضیة لقمة العیش مثبتاً إنهم قد ضلوا الطریق.

فی روایته *ما تبقی لکم* التی تعتبر مکملة *لرجال فی الشمس* یکتشف البطل طریق القضیة فی أرض فلسطین وکان ذلک تبشیراً بالعمل الفدائی.

روایته *أم سعد* کانت کلها مستوحاة من ناس حقیقیین فی فترة من الفترات کانت الروایة عن ثورة ۶۷ فی فلسطین، فأخذ یجتمع إلی ناس المخیمات ویستمع إلی ذکریاتهم عن تلک الحقبة.«کانت لغسان عین الفنان النفاذه وحسه الشفاف المرهف، فقد کانت فی ذهنه فی الفترة الأخیرة من حیاته، فکرة مکتملة لقصة رائعة استوحاها من مشاهدته لأحد العمال، وهو یکسر الصخر فی کاراج البنایة التی یسکنها، وکان ینوی تسمیتها *الرجل والصخر*.» (العباسی، ۲۰۰۷م)

عالج غسان البحث، والقصة، والروایة، ولکنه أصدر طائفة من قصصه وروایاته التی عالج فیها مأساة قومه وکارثة بلاده. یقول الدکتور احسان عباس: «من یقرأ قصص غسان کنفانی یدرک دون عناء، أن أشخاصه من أبناء الشعب البسطاء، وکثیر منهم أطفال أو شبان یعملون بدافع من صدق الفطرة دون أن یبلغوا سن الحکمة ولیس فیهم من یحاول أن یفلسف الدور الذی یؤدیه أو الغایة التی یسعی إلیها، فمنهم من یضحی بحیاته دون أن تمر بخاطره "لم" ومنهم من یتحمل عبء العائلة الکبیرة التی خلفها لها أبوه، والتشرد معاً دون أن یتذمر، ومع ذلک فإنهم فی مثل هذه المواقف لیسوا سلبیین

كما أنهم ليسوا أطهاراً كالملائكة.» (السوافيری، لاتا: ۳۸۱)

«نال عام ۱۹۶۶ جائزة أصدقاء الكتاب فی لبنان عن روايته ماتبقی لكم.

نال اسمه جائزة منظمة الصحفيين العالمية سنة ۱۹۷۴ وجائزة اللوتس ۱۹۷۵.

منح اسمه وسام القدس للثقافة والفنون فی عام ۱۹۹۰.» (شاهين، ۲۰۰۰م: ۵۴۳)

من أعمال الشهيد الكاتب المناضل

۱. «الروايات

رجال فی الشمس- بيروت۱۹۶۳م.

ما تبقی لكم - بيروت۱۹۶۶م.

عائد إلی حيفا - بيروت۱۹۶۹م.

أم سعد- بيروت۱۹۶۹م.

الشیء الآ خر- بيروت، وقد صدرت فصولا متتابعة ولم تصدر فی كتاب مستقل إلا بعد استشهاد عن طريق لجنة جمع أعماله.

العاشق ...الأعمی والأطرش...برقوق نيسان (روايات غير كاملة نشرت ضمن أعماله الكاملة)

۲. المجموعات القصصية

موت سرير رقم ۱۲ - بيروت۱۹۶۱م.

أرض البرتقال الحزين - بيروت۱۹۶۳م.

عن الرجال والبنادق- بيروت۱۹۶۸م.

المدفع -دار الأسوار - عكا۱۹۷۸م.

۳. الدراسات

أدب المقاومة فی فلسطين المحتلة - (۱۹۶۶- ۱۹۴۸م). بيروت ۱۹۶۶.

الأدب الفلسطينی المقاوم تحت الاحتلال - بيروت ۱۹۶۸م.

فی الأدب الصهيونی - بيروت ۱۹۶۷م.

المنظمة الاشتراکیة الإسرائیلیة ماتسبن- دار منیمنة – بیروت.

ثورة ۱۹۳۶-۱۹۳۹ فی فلسطین – خلفیات، وتفاصیل، وتحلیل.

۴. المسرح

الباب...القبعة والنبی ..- بیروت ۱۹۶۴م.

ظهرت أعماله الکاملة فی أربعة مجلدات تشمل: الروایات، القصص القصیرة، المسرح، الدراسات.» (المصدر نفسه: ۵۴۵-۵۴۴)

موجز روایة ما تبقی لکم

ما تبقی لکم، هی الروایة الثانیة لغسان کنفانی، ظهرت بعد ثلاث سنوات من روایة *رجال فی الشمس*، أی فی سنة۱۹۶۶م. تحکی الروایة عن أسرة فلسطینیة تسکن مدینة غزة. هذه الأسرة أخرجت من مدینتها یافا، بعد الصدام الذی حصل بین العرب، والیهود وتحت ضغط الظروف، والإرهاب الذی تم فیه إخراجهم تتشتت الأسرة. أخرج حامد، وهو الطفل الذی له من العمر عشر سنوات مع أخته الشابة مریم، ولها من العمر عشرون عاماً، ومعهما الخالة العجوز من یافا إلی غزه، وبینما تبقی الأم فی غزه لأنهم یحملون فی قارب، وهی آملة فی اللحاق بهم فی قارب آخر غیر أنها لاتتمکن من ذلک.

یقف حامد حیاته علی القیام بالأسرة الصغیرة: الأخت والخالة. یعمل فی مدرسة اللاجئین معلماً. وتعلم الأسرة عن طریق الإذاعة بأن الأم مازالت علی قید الحیاة فی الأردن، وتعیش عند شقیقتها وتتبادل معها الرسائل الإذاعیة. یکبر حامد، ویرفض أن یتزوج؛ لأنه یرید أن یخرج من جحره القمیء إلی وضع أفضل، ویرفض أیضاً أن یزوج مریم إلی أن یتقدم لها الرجل الجدیر بها. لکن الظروف لاتتیح له تحقیق رغباته فیفاجأ بأخته، التی وهب لها حیاته حاملاً وقد بلغت من العمر السادسة والثلاثین وممن؟ ومن زکریا، زمیل حامد فی المدرسة، الذی لا یحمل له إلا الاحتقار والازدراء، حتی إنه لا یسمیه إلا «النتن» زکریا خائن، ذلیل، جبان، تهاوی أمام أول تهدید، حینما توجه به إلیهم الضابط الإسرائیلی بأن یدلوا علی الفدائی سالم من بینهم، وفی ساحة المعسکر

حيث كان يسود الصمت، يأمر الضابط الجنود برفع بنادقهم، لإطلاق النار على الجميع إن لم يعترفوا أيهم سالم، حتى ينطلق زكريا من بين الصفوف، راكعاً أمام الضابط، ويقول: «أنا أدلّكم على سالم» لكن سالم لم يتح له فرصة الاعتراف فقد تقدم إلى الضابط الذى أمر بأخذه خلف جدار وبعد دقائق سمعوا صوت الرصاص.

أجل، استشهد سالم ولم يستطع حامد أن ينسى هذه الحادثة ولا أن يغفر زكريا بالإضافة إلى هذه الخيانة؛ إنه متزوج وله خمسة أولاد. لم يحتمل حامد فجيعته بأخته، فقرر أن يترك البيت، ويذهب إلى أمه فى الأردن عبر الصحراء، يخرج بلا سلاح ولا دليل، لكنه صمم ولن يتراجع. يبدأ رحلته عبر الصحراء فى المساء، وفى قلبها يفاجأ بجندى إسرائيلى ضلّ طريق دوريته، عرف ذلک من مسدس الإنقاذ الذى كان يطلقه، كى يهتدى إليه أصحابه، يتنبه فى هذه اللحظه إلى أنه لا يملک سلاحاً، وبخفة وبراعة، يباغت الجندى، فيرميه أرضاً وينزع منه سلاحه ويستولى على سكينه. يمضى حامد كل الليل أمام الجندى بعد أن قيده منتظراً عودة الدورية، وفى هذه الساعات يستعرض ماضيه، وحاضره، وما حقق على صعيد الوطن أو الأسرة.

ها هى الفرص تتاح له ليعوض عن الماضى، ويعتزم قتل الجندى بسكين. وفى الوقت نفسه تقضى مريم على زكريا بسكين المطبخ؛ لأنه يصر على إسقاط الجنين، ويسميها الفاحشة، والشيطان، هى تقتل زكريا "النتن" لتتلافى الفضيحة. (كنفانى، ١٩٨٦م: *بالتلخيص*)

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

دراسة فنية لرواية *ما تبقى لكم*

تعتبر هذه الرواية تجديداً كبيراً فى الشكل الروائى، أثار إعجاباً وجدلاً كبيرين بين القراء؛ إذ اعتبرت قفزة كبيرة فى الشكل.

يقول غسان: «هى قفزة من حيث الشكل، لكنها أثارت بنفس الوقت تساؤلات بالنسبة لى، لمن أكتب أنا؟ هذه الرواية قلة يستطيعون من بين قرائنا العرب أن يفهموها. فهل أكتب من أجل أن يكتب أحد النقاد فى مجلة "إنى أكتب رواية جيدة" أم أنا أكتب

من أجل أن أصل إلی الناس؟؟» (خلیل، ۱۹۸۹م: ۱۱۱)

بعد هذا العمل لم یحاول غسان تکرار هذه التجربة، ولم یطورها فی روایتیه اللتین صدرتا بعدها؛ بل کان فی *عائد إلی حیفا*، أمیل إلی البساطة والکلاسیکیة، وفی *أمسعد* یزید تبسیطاً، وإنه ابتعد تماماً عن التعقید والتداخل الذی تمیزت به روایة *ماتبقی لکم*. هذه الروایة تعتبر من بواکیر التجارب الحداثیة فی منبر الروایة العربیة، لایستطیع القارئ العادی أن یفهمها، وحتی القاری المختص یحتاج إلی الروية حتی یستکشف مضامینها.

المکان: کان مکان الروایة فی غزة. الزمان: یرجع إلی ما قبل نکبة ۱۹۴۸م، حیاة قسوة بعد الحرب. أبطال الروایة ثلاثه هم: حامد وأخته، مریم، زکریا الخائن.

الحدث المحوری: یظهر فی الاحساس الموحش بالعالم المظلم الذی تعیشه مریم العانس، التی بلغت الخامسة والثلاثین، ولقاءها بزکریا الخائن، وحملها سفاحاً منه ولایجد أخوها، حامد، مفراً ولکنه عزم أن یغادر غزة للحاق بأمه فی الأردن و...

«من حیث الأسلوب: نشأت الصعوبة فی الروایة، وبشکل خاص من اعتماد الکاتب التداعی، والمونولوج الداخلی، وهما یدخلان فی نسیج الحدث الروائی بدون فواصل تنبه تلقائیاً إلی تغیر المواقف، أو الشخصیات، کما تعتمد توازی الأحداث فی الزمان، والمکان وقد حاول غسان تذلیل هذه الصعوبة باللجوء إلی تغییر لون حروف الطباعة بین العادیة، والبارزة ورغم ذلک فالصعوبة تبقی قائمة.» (المصدر نفسه، ۱۱۲)

من المهم الإشارة إلی أن الروایة لاتقوم علی الفصول، فهی عبارة عن فصل واحد طویل، من أهم العوامل التی تأتی منها الصعوبة باستثناء بعض الروابط اللفظیة، سرعة الانتقال بین الأحداث والشخصیات؛ لأن هذا الانتقال یتم بدون إشعار فنی أو أسلوبی، بل وحتی دون إعطاء علامات الوقف من الانتقال إلی فقرة جدیدة، بحیث یصبح من الصعب التنبیه إلیه، مما ینشیء جواً من الغموض یفرض علی القارئ التفکر والتأنی؛ لیتمکن من الربط بین جزئیات الحدث الواحد قبل أن تقاطعها جزئیات الأحداث الأخری.

إلی جانب ذلک هنالک التداخل الزمنی بین الماضی والحاضر، إذ یمزجان فی الحدث الواحد، لتوضیح ذلک نعرض فقرة من الروایة تظهر لنا هذه السمات: «أنت أرض

خصبة أيتها الشيطانة. أرض خصبة، أقول لک، أرض خصبة مزروعة بالوهم والمجهول، تتكسر كل انصال الفولاذ فی العالم إذا مرت فوق صدرک الأصفر العاری، صدرک الأجرد الممتد إلی أبدی، وإلی ابادهم والسابح بجلال فی بحر من العتمة، كل نصال الفولاذ فی العالم ليس بمقدورها أن تحصد من فوقک عرقاً واحد. ولكنها تتكسر، واحداً وراء الآخر أمام حصادک الصلب النامی أكثر فأكثر، كلما خطا الرجل إلی أعماقک خطوة وراء الأخری، حتی ليتحول هو إلی عرق مجهول يستقی منک انتصابه وخطواته. وليس بالوسع أن يحصد... لا تقل لی ذلک حتی لو فكرت به، فأنا خائفة منه إلی درجة لا أجرؤ فيها علی القضاء عليه، عاری. ولكنه يا زكريا عاری الوحيد فی خمس وثلاثين سنة طاهرة ومخزونة.» (كنفانی، ۱۹۸۶م: ۲۷)

يحتوی المقطع رغم قصره علی ثلاث نقلات سريعة. فی بداية الفقرة، مناجاة بين زكريا ومريم، تلوح منها نوعية العلاقة بينهما، يتحول الكلام بعدها إلی حامد وهو يضرب بالصحراء مكتشفاً خصوبة الوهم الذی يعتری من يحسب نفسه قادراً علی خوض غمارها. فهی أشد وأعتی من أن تقهر. والرابط اللفظی "أرض خصبة" ثم عودة إلی زكريا ومريم، وهی تتمنع بعناد عن قبول فكره الإجهاض التی طرحها زكريا والرابط اللفظی "أن يحصد" ونلاحظ التوازی بين الأزمنة: حامد فی الصحراء، مريم وزكريا فی البيت بعيد مغادرة حامد له.

«حين يتعدد الرواة، فإن الفضاء يغدو بمثابة وجهة نظر للشخصيات التی تتبادل الرؤی. وهذه الرواية نموذج رفيع لتعدد الرواة يقدم الفضاء فيها عناصرها وفق رؤية الرواة.» (حطينی، ۱۹۹۹م: ۱۳۲)

زكريا يصف الصحراء من موقع الهازی بحامد وبحداثة سنه فيقول:

«إن الصحراء تبتلع عشرة من أمثاله فی ليلة واحدة (*ماتبقی لكم*) بينما يدرک حامد صحة كلام زكريا يضيف إلی عبارة زكريا (عشرة من أمثاله) كلمة لتصبح (عشرة رجال من أمثالی)؛ ليقيم علاقة حب اضطرارية بينه وبين الصحراء؛ ليسهم الفضاء من خلال ذلک فی تقديم وعی الشخصية المتناقض تجاها: ليس بمقدوری أن أكرهک، ولكن هل

سأحبک؟ أنت تبتلعین عشرة رجال من أمثالی فی لیلة واحدة ـ إننی أختار حبک، إننی مجبرٌ علی اختیار حبک، لیس ثمة من تبقی لی غیرک.» (المصدر نفسه)

لقد نجحت الروایة نقدیاً ونالت ثناء المختصین، وأصبحت علامة علی مستوی الفن الروائی العربی، یقول عنها د.أبومطر: «فعلی مستوی الشکل استخدام تیار الوعی بمهارة وعفویة، جعلت العدید من النقاد یعدونه خطوة جریئة فی مسار الروایة العربیة.» (خلیل، ۱۹۸۹م: ۱۳۱)

یحاول غسان فی هذه الروایة الوصول إلی التعبیر المناسب عن أفکاره التحرریة، وغایتها فکرة العودة.

الروایة من الناحیة الفنیة: «أما من الناحیة الفنیة فإن أسلوبها یتمیز عن سائر الروایات. الکاتب نفسه لم یکن راضیاً عن نجاح الروایة الفنی، علی رأیه، أنها ابتعدت عن الجماهیر لئن کان النقاد یعتبرون جماهیریه الفن مقیاساً لهبوط مستواه الفنی.» (المصدر نفسه: ۱۳۲)

ولکن نحن نرفض مثل هذه الأحکام، خاصة فی المجتمعات العربیة الحاضرة؛ لان الفن فی الوضع العربی الراهن یجب أن یکون مسؤولیة. خاصة فی الحالة الفلسطینیة تصبح هذه المسؤولیة أکثر إلحاحاً؛ لأن الهدف هو الثورة، والثورة لاتقوم إلا بالجماهیر؛ لأنهم الغایة والوسیلة، أی أدب یتخلی عن الفعل والجماهیر یفقد قیمته الوطنیة.

اللغة: یمکن أن نقول إن اللغة فی هذه الروایة ابتعدت عن الجماهیر ولکن الجدیر بالذکر، أنها انعکاس للمضمون الروحی للشعب الفلسطینی، وسیتم إیضاح ذلک فی قسم فلسطین والروایة.

الرمز فی الروایة

حامد هو الشخصیة الرئیسیة فی الروایة، وبه یتجلی الرمز الکلی وعنده بقیة الرموز الجزئیة. هو الرمز لکل الشباب الفلسطینی الذی کابد مأساة ۱۹۴۸م، وقذف به فی سرعة لاتسمح باستیعاب ما حدث. حامد رمز الکیان الفلسطینی المحبط، المفجوع، المتردد

وهو يخوض معركة الخلاص.

فأی رمز هذا الذی تهيأ فی شخصية مريم؟ مريم هی كل ما أفرزته الهزيمة من أوضاع الأسره الفلسطينية، ابتعدت من بيتها ومدرستها وطموحاتها وأرضها بلامال ولاسند؛ لتضعها أمام أوضاع الحياة العاتية.

زكريا هو الذی يمثل صورة الفلسطينی الجاحد بأرضه. هو يدل الضابط الصهيونی علی الفدائی سالم ويغتصب مريم فی غياب أخيها، حامد، عن البيت إن قتل زكريا علی يد مريم والذی يختتم به غسان الرواية، يوكد «أن المرأة الفلسطينية ليست صورة لفلسطين فحسب؛ بل هی رمز لأرضها عندما تثور علی مغتصبيها.» (الصالح، ۲۰۰۴م: ۵۲)

إن رحلة حامد الهادفة إلی النقاء (الانطلاق من الخيانة) هی رمز لدرس كبير يقدمه غسان، كل محاولة لبلوغ الطهر الفلسطينی لابد لها من العبور بفلسطين المحتلة. الصحراء فی ما تبقی لكم، هی وسيلة فنية تغوض الراوی، فهی التی تشهدنا علی حامد، وقد اختارها للخلاص فتصفه لنا شكلاً، وإرادة، وموقفاً، وتنقل لنا خطواته فوقها. أجل! الصحراء، وسيلة حياته، الصحراء تنقذه من هذه المعركة. صحراء موجودة فی أكثر الأماكن التی يوجد فيها الفلسطينی؛ لأننا نری فيها الخلاص، والأمن كما تتجلی أمامنا مثل مهلكة قاتلة، وكلاهما صار جزءاً من فلسطين. أملها الراحة وخوفها من مهلكة قاتلة تكون وحشتها.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

فلسطين فی رواية *ماتبقی لكم*

لم يكن اهتمام القراء والنقاد بهذه الرواية، *ما تبقی لكم*، بسبب شكلها الفنی فحسب، بل بسبب إثارتها لوعی جديد أيضاً، وعی يستمد تحققه، وحضوره، وتعبيره عن الذات الفلسطينية من خلال الارتباط بالأرض؛ لبقاء الفلسطينی واستمراره فی الحياة أولاً، ولانتصاره علی الواقع الغاشم الذی دفعه مغتصبو تلك الأرض إليه ثانياً. ويتجلی ذلك الوعی من خلال ثلاث شخصيات إنسانية رئيسة: حامد، ومريم، وزكريا، وبينهم علاقة

ویتنازع حرکتهم فی الأحداث خطان متوازیان أحیاناً أو متعارضان أحیانا أخری.

کانت هذه الروایة انعکاساً للمضمون الروحی لشعب معین فی مرحلة معینة. زکریا هو «الوعی الفلسطینی فی خبله الذی أدانه غسان فی *رجال فی الشمس*، إنه الضمیر لا فی عدم قابلیته للإفاقة فحسب، بل وفی عدم إحساسه حتی بسقوطه الفردی.» (سامی الیوسف ، ۲۰۰۴م: ۴۵)

کانت مریم هی الحس الدنس الخانع، والذی هو جزء من محتوی الضمیر الفلسطینی. فإن انتصارها علی نقیضها، مشروط بانتصار حامد علی الجندی، أما حامد فهو الممثل لکل الشباب الفلسطینی الذی کابد مأساة ۱۹۴۸م. علی المستوی الفردی تجاوز حامد، ماضی المخیم، وعاره، وذله؛ لیصنع حاضراً یمتلئ بالحرکة، والفعل الإیجابی باتجاه المستقبل، والخلاص وعلی المستوی الجمعی، یجسد حامد صورة الشعب الفلسطینی الذی فقد الوطن ووقف عاجزاً غیر قادر علی الفعل، والحرکة فی مخیمات اللاجئین.

«وفی إطار الواقع المهزوم، کان لابد من الفعل باتجاه الخلاص وعدم الرضوخ والاستکانه. فجاءت حرکة حامد وحرکة مریم؛ لتعبر عن إیجابیه الزمن الحاضر فی تحرکه نحوالمواجهة، علی رغم من عدم إستعداد حامد وتخطیطه المسبق للخطة المواجهة فقد کان رحیله یعبر عن رفض عفویموجةللواقع». (القصراوی، ۲۰۰۴م: ص ۱۳۰)

صدرت الروایة ۱۹۶۶م، وهذا التاریخ له دلالته الکبیرة فی حیاة الشتات الفلسطینی، فیه تحقق ظهور التنظیمات الفلسطینیة، بتشکیلاتها العسکریة الضاربة، والسیاسة المنظمة. هکذا تحققت البدایة التی کانت حلم الکاتب، وهو یحاول الوصول إلی التعبیر المناسب عن أفکاره التحرریة. إن خوفه علی القضیة من الزمن، زاد من إلحاح هاجسه. کان یخشی أن تصبح فلسطین بالنسبة للأجیال الفلسطینیة الآتیة، مجرد ذکری غالیة، وحنیناً رومانسیاً لأرض الأجداد ولهذا کان حرصه علی إقامة ثقافة فلسطینیة شدیداً عبر القصة، والروایة والصحافة و...

استطاع غسان من خلال هذه الروایة شرح الوضع الفلسطینی لفترة الخمسینات، وأوائل الستینات، وهذا یعود لإمکانات کنفانی الفکریة والفنیة. استخدم الکاتب عدة

فنیات؛ لخدمة رمزیة الروایة فی الأسلوب والأدوات، رموز متنوعة: الشخصیة الرمزیة: حامد/مریم/زکریا/ والفعل الرمزیة: تغییر التوجه فی الصحراء/قتل العدو وکان موفقاً بالنسبة للأداة الرمز حقاً. إن مصیر حامد والجندی الصهیونی فی خاتمة الروایة یقول إن مواجهه الفلسطینی لعدوه هی الطریق الوحیدة التی تکفل له استمرار وجوده فی الحیاة، أو بدایة عودته إلی الأرض التی اقتلعه هذا العدو منها. أما فی الوجهة الأخری من حرکة الروایة، مریم وزکریا، فإن الروائی یقدم شکلا آخر لصلة الفلسطینی بالأرض، وجهاً نقیضاً لحامد ملوثاً بالعار والخیانة. العار الذی تحمله مریم فی بطنها، والخیانة التی کانت فی رأس زکریا، الذی یمثل صورة الفلسطینی الجاحد بأرضه.

«تبدأ *ماتبقی لکم* بالدنس، بالسلب، وتنبثق منه، ولکن الطهر یحاوره ولایدعه یفلت من قبضته حتی ینتصر علیه.» (سامی الیوسف، ۲۰۰۴م: ۴۵)

إنها تبدأ بالدنس وتنتهی بالنظافة، وبذلک تمهد السبیل أمام *مسعد* (الروایة الأخری) وکذلک هی تبدأ بالأزمة وتنتهی بالانفراج.

«أدب الکاتب الروائی هو التنویر الذی یسلطه وبقوة علی الحالة الفلسطینیة، اجتماعیاً وسیاسیاً، بعد النکبة، فی مرحلة الخمسینات، أی قبل ظهور الحرکة النضالیة المسلحة، وهذا حتی یستجلی الفلسطینی أعماق قضیته.» (خلیل، ۱۹۸۹م: ۱۲۹)

یری الدکتور أبومطر: «أن الطرح الوطنی التحریض من خلال تحرک شخصیة حامد إلی الفعل الثوری قد جاء عن وعی وتخطیط، مسبقین تلاهما تخطیط آخر بإطار الفعل الثوری الفردی بعداً جماعیاً فی الروایات التالیة لهذا العمل مثل روایة أم سعد مثلا.» (المصدر نفسه: ۱۳۰)

رسالة غسان فی هذه الروایة أو فی الروایات الأخری کانت الدعوة إلی الوعی. یقول فی ذلک: لم یکن الاتجاه الحقیقی الوحید للخلاص إلا بالمواجهة، والمواجهة فقط.

النتیجة

تعتبر روایات غسان من الروایات الواقعیة التی تمثل فترة ۱۹۶۷-۱۹۴۸ من تاریخ

فلسطین. إن الکبت، والظلم اللذین سادا المجتمع الفلسطینی فی هذه الفترة قد دفعا غسان إلی استخدام الرمز للتعبیر عن آرائه.إن غسان لبس ثوب الناقد الاجتماعی فی روایاته الاجتماعیة، ورکز فیها علی الإنسان وما یعانی منه؛ إنه لم ینس مجتمعه، وکان نداؤه الدفاع عن حقوق المرأة، والحریة، والنجاة من قیود الظلم.

روایة ماتبقی لکم صدرت ۱۹۶۶م، وهذا التاریخ له دلالته الکبیرة فی حیاة الشتات الفلسطینی، فیه تحقق ظهور التنظیمات الفلسطینیه بتشکیلاتها العسکریة الضاربة، والسیاسة المنظمة، کانت الدعوة إلی الوعی، إن غسان کنفانی یدعو إلی مجتمع ینفی استغلال الإنسان للإنسان، ویوفر تکافؤ الفرص، واستثمار المواهب الإنسانیة. قد خرج غسان کنفانی بهذه الروایة عن دائرة الواقع الاجتماعی المحلی إلی القضایا الإنسانیة العامة التی تتعلق بالوجود وبالإنسان. فیما یتعلق بروایة غسان کنفانی، قد استطاع الکاتب أن یصور قضایا مجتمعه من خلال رسم أحداثه. بعد قراءة هذه الروایة الاجتماعیة تتضح أن غسان کنفانی، کان یشاهد مشکلات المجتمع الفلسطینی، وقد تأثر بمشاهداته الدقیقة، وکأنه ناطق باسم الطبقة الشعبیة، والطبقة المتوسطة التی کانت تعانی من مظاهر الظلم، والفساد، والفقر، والحرمان. والکاتب قد تحدث عن الواقع علی لسان الشخصیات الفلسطینیة.

المصادر والمراجع

الصالح، نضال. ۲۰۰۴م. *نشید الزیتون، قضیة الأرض فی الروایة الفلسطینیة*. دمشق: منشورات اتحاد الکتاب العرب.

القصراوی، مها حسن. ۲۰۰۴م. *الزمن فی الروایة العربیة*. بیروت: المؤسسة العربیة للدراسات والنشر.

السوافیری، کامل. لاتا. *الأدب العربی فی فلسطین من سنة ۱۸۶۰-۱۹۶۰م*. القاهرة: مکتبة الدراسات الأدبیة، دارالمعارف.

حطینی، یوسف. ۱۹۹۹م. *مکونات السرد فی الروایة الفلسطینیة*. دمشق: اتحاد الکتاب العرب.

خلیل، خالدة شیخ. ۱۹۸۹م. *الرمز فی أدب غسان کنفانی القصصی*. قبرص: لانا.

سامی الیوسف، یوسف. ۲۰۰۴م. *رعشة المأساة*. دمشق: دارکنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامیة.

شاهین، أحمد عمر. ۲۰۰۰م. *موسوعة کتاب فلسطین فی القرن العشرین*. الجزء الثانی. غزة: منشورات

المركز القومی للدراسات والتوثيق.
كنفانی، عدنان. ۲۰۰۱م. *غسان كنفانی صفحات كانت مطوية*. بيروت: مؤسسة غسان كنفانی الثقافية.
كنفانی، غسان. ۱۳۷۰ش. *بازگشتبهحيفا و۵داستانكوتاه*. ترجمه:يوسف عزيزی بنی طرف. تهران: نشر چكامه.
كنفانی، غسان. ۱۹۸۷م. *العاشق*. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.
كنفانی، غسان. ۱۹۸۶م. *ما تبقی لكم*. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.

المواقع الإلكترونية

البيک، سليم ۲۰۰۷م. *حين اغتالوا غسان*.
موقع الحوار المتمدن: www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=۵۰۵۴۳.
العباسی، محمد عبده. ۲۰۰۷م. *غسان كنفانی ...شهيد يليق بوطن سليب*.
شبكة سندس الأدبية www.sndos.com/vb/showthread.php?t=۹۹۰۹
حسن، حميد. لاتا. *من موقدة البيت إلى موقدة الثورة*.
موقع www.horria.org/kanafani-haddaf.htm.
شلحت، أنطون. لاتا. *ماذا يتبقى عن غسان*.
موقع www.algazera.com.
ضمرة، يوسف. ۲۰۰۵م. حارس الحلم الفلسطينی.
موقع www.inrooh.net/fm/aie/aeye.
كنفانی، عدنان. ۲۰۰۷م. *ملف خاص بمناسبة الذكری لاستشهاد الأديب غسان كنفانی*.
موقع www.thagafa.org/main/defaill.aspx.
هواری، داليا. ۲۰۰۷م. وردة فوق قبر.
موقع www.alsakher.com/vb۲/showthread.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی